

سورة البروج مكية
وآياتها ثنتان وعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قَتِيلٍ أَصْحَابِ
الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾

قال أبو جعفر رحمه الله : قوله : « والسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ » أقسم الله جلَّ ثناؤه بالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ .
واختلف أهل التأويل في معنى البروج في هذا الموضع ، فقال بعضهم : عني بذلك : والسَّمَاءِ ذَاتِ
الْقُصُورِ . قالوا : والبروجُ : القصورُ .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : والسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّمْلِ والماءِ .

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب : أن يُقال : معنى ذلك : والسَّمَاءِ ذَاتِ مَنَازِلِ الشَّمْسِ والقَمَرِ ،
وذلك أن البروجَ : جمع بُرْجٍ ، وهي منازلٌ تُتَّخَذُ عَالِيَةً عَنِ الْأَرْضِ مَرْتَفَعَةً ، ومن ذلك قولُ الله « وَلَوْ كُنْتُمْ
فِي بُرُوجٍ مُشَيَّلَةٍ » ، وهي منازلٌ مَرْتَفَعَةٌ عَالِيَةً فِي السَّمَاءِ ، وهي اثنا عشر بُرْجًا ، فمسيرُ القَمَرِ فِي كُلِّ بُرْجٍ
منها يومانٍ وثلاثٌ ، فذلك ثمانية وعشرون مَنْزِلًا ، ثم يستسرُّ ليلتين ؛ ومسيرُ الشَّمْسِ فِي كُلِّ بُرْجٍ منها
شهرٌ .

وقوله : « وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ » يقولُ تعالى ذِكْرَهُ : وَأَقْسِمُ بِالْيَوْمِ الَّذِي وَعَدْتُهُ عِبَادِي ، لِفَصْلِ الْقَضَاءِ
بَيْنَهُمْ ، وذلكَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ .

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل ، وجاء الخبرُ عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم .

حدثنا محمد بن عوف ، قال : ثنا محمد بن إسماعيل بن عياش ، قال : ثني أبي ، قال : ثني ضمضم بن زرعة ، عن شريح بن عبيد ، عن أبي مالك الأشعري ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اليوم الموعود يوم القيامة »^١ .

وقوله : « وشاهدٍ ومشهدٍ » : اختلف أهل التأويل في معنى ذلك ، فقال بعضهم : معنى ذلك : وأقسم بشاهدٍ ، قالوا : وهو يوم الجمعة ، ومشهدٌ ، قالوا : وهو يوم عرفة .

حدثنا ابن حميد - بسنده - عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « المشهود : يوم عرفة ، والشاهد : يوم الجمعة ، فيه ساعة لا يوافقها مؤمنٌ يدعو الله بخيرٍ إلا استجاب له ، ولا يستعيئه من شرٍّ إلا أعاده »^٢ .

وقال آخرون : الشاهد : محمدٌ ، والمشهود : يوم القيامة .

وقال آخرون : الشاهد : الإنسان ، والمشهود : يوم القيامة .

وقال آخرون : الشاهد : الله ، والمشهود : يوم القيامة .

وقال آخرون : الشاهد يوم الأضحى ، والمشهود : يوم الجمعة .

وقال آخرون : المشهود : يوم الجمعة ، ورووا ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

حدثنا أحمد بن عبد الرحمن ، قال : ثني عمي عبد الله بن وهب ، قال : أخبرني عمرو بن الحارث ، عن سعيد بن أبي هلال ، زيد بن أيمن ، عن عبادة بن نسي ، عن أبي الدرداء ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أكثروا علي الصلاة يوم الجمعة ، فإنه يوم مشهود ، تشهد الملائكة »^٣ .
وقوله : « قُتِلَ أصحابُ الأخدود » يقول : لعن أصحاب الأخدود .

^١ جزء من حديث حسن الإسناد ، كما ذكر الألباني - رحمه الله - في صحيح الجامع (٨٢٠٠) وفصل الكلام عليه في سلسلة الأحاديث الصحيحة ، (١٥٠٢) فليراجع هناك لمن أراد التفصيل ؛ وتام الحديث : « والشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة ، ويوم الجمعة ذخره الله لنا ، وصلاة الوسطى صلاة العصر » .

^٢ حديث حسن ، أخرجه الترمذي ، وهو في صحيح سنن الترمذي (٢٦٥٩) . وانظر صحيح الجامع (٨٢٠١) بلفظ : « اليوم الموعود يوم القيامة ، واليوم المشهود يوم عرفة ، والشاهد يوم الجمعة ، وما طلعت الشمس ولا غربت على يوم أفضل منه ، فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله بخيرٍ إلا استجاب الله له ولا يستعيذ من شيء إلا أعاده الله منه » .

^٣ سند هذا الحديث فيه انقطاع ، فإن عبادة بن نسي لم يدرك أبا الدرداء ، كما نوه بذلك ابن كثير رحمه الله في تفسيره (٥١٥٣) . وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أحاديث في فضل الصلاة عليه يوم الجمعة ، منها قوله : « أكثروا الصلاة علي في يوم الجمعة ، فإنه ليس يصلي علي أحد يوم الجمعة إلا عرضت علي صلته » صحيح الجامع (١٢٠٨) .

حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ مَعْمَرٍ ، قَالَ : ثَنِي حَرَمِيِّ بْنِ عُمَارَةَ ، قَالَ : ثَنَا حَمَادُ بْنُ سَلَمَةَ ، قَالَ : ثَنَا ثَابِتُ
الْبُنَانِيُّ ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى ، عَنْ صُهَيْبٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «كَانَ
فِيْمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مَلِكٌ ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ ، فَآتَى السَّاحِرُ الْمَلِكَ ، فَقَالَ : قَدْ كَبِرْتَ سِنِي ، وَدَنَا أَجْلِي ، فَادْفَعْ
لِي غُلَامًا أَعْلَمَهُ السَّحْرَ ؛ قَالَ : فَادْفَعَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ السَّحْرَ ، قَالَ : فَكَانَ الْغُلَامُ يَخْتَلِفُ إِلَى السَّاحِرِ ،
وَكَانَ بَيْنَ السَّاحِرِ وَبَيْنَ الْمَلِكِ رَاهِبٌ ، قَالَ : فَكَانَ الْغُلَامُ إِذَا مَرَّ بِالرَّاهِبِ قَعَدَ إِلَيْهِ ، فَسَمِعَ مِنْ كَلَامِهِ ،
فَأَعْجَبَ بِكَلَامِهِ ، فَكَانَ الْغُلَامُ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ وَقَالَ : مَا حَسَبَكَ ؟ وَإِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَعَدَ عِنْدَ
الرَّاهِبِ يَسْمَعُ كَلَامَهُ ، فَإِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ ضَرَبُوهُ وَقَالُوا : مَا حَسَبَكَ ؟ فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ ، فَقَالَ لَهُ
الرَّاهِبُ : إِذَا قَالَ لَكَ السَّاحِرُ : مَا حَسَبَكَ ؟ قُلْ حَسَبَنِي أَهْلِي ، وَإِذَا قَالَ أَهْلُكَ : مَا حَسَبَكَ ؟ فَقُلْ حَسَبَنِي
السَّاحِرُ . فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ مَرَّ فِي طَرِيقٍ وَإِذَا دَابَّةٌ عَظِيمَةٌ فِي الطَّرِيقِ قَدْ حَبَسَتْ النَّاسَ لَا تَدْعُهُمْ
يَجُوزُونَ ، فَقَالَ الْغُلَامُ : الْآنَ أَعْلَمُ أَمْرَ السَّاحِرِ أَرْضَى عِنْدَ اللَّهِ أَمْ أَمْرُ الرَّاهِبِ ؟ قَالَ : فَاتَّخَذَ حَجْرًا ، قَالَ :
فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَإِنِّي أُرْمِي بِحَجْرِي هَذَا فَيَقْتُلُهُ وَيَمُرُّ النَّاسُ .
قَالَ : فَرَمَاهَا فَتَقَلَّتْهَا ، وَجَازَ النَّاسُ ؛ فَبَلَغَ ذَلِكَ الرَّاهِبَ ، قَالَ : وَأَتَاهُ الْغُلَامُ فَقَالَ الرَّاهِبُ لِلْغُلَامِ : إِنَّكَ خَيْرٌ
مِنِّي ، وَإِنْ أُبْتَلِيتَ فَلَا تَدُلَّنَّ عَلَيَّ . قَالَ : وَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَسَائِرَ الْأَدْوَاءِ ، وَكَانَ لِلْمَلِكِ
جَلِيسٌ ، قَالَ : فَعَمِيَ ، قَالَ : فَقِيلَ لَهُ : إِنَّ هَا هُنَا غُلَامًا يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَسَائِرَ الْأَدْوَاءِ فَلَوْ أَتَيْتَهُ ؟
قَالَ : فَاتَّخِذْ لَهُ هَدَايَا . قَالَ : ثُمَّ أَتَاهُ فَقَالَ : يَا غُلَامُ ، إِنْ أَبْرَأْتَنِي فَهَذِهِ الْهَدَايَا كُلُّهَا لَكَ ، فَقَالَ : مَا أَنَا
بِطَبِيبٍ يَشْفِيكَ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَشْفِي ، فَإِذَا آمَنْتَ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يَشْفِيكَ ؛ قَالَ : فَمَنْ الْأَعْمَى ، فدَعَا اللَّهَ
فَشَفَّاهُ ، فَقعَدَ الْأَعْمَى إِلَى الْمَلِكِ كَمَا كَانَ يَقْعُدُ ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : أَلَيْسَ كُنْتَ أَعْمَى ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ :
فَمَنْ شَفَاكَ ؟ قَالَ : رَبِّي ؛ قَالَ : وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي ؟ قَالَ : نَعَمْ ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ ؛ قَالَ : فَأَخَذَهُ بِالْعَذَابِ فَقَالَ :
لَتَدُلَّنَّنِي عَلَى مَنْ عَلمَكَ هَذَا ، قَالَ : فَدَلَّ عَلَى الْغُلَامِ ، فدَعَا الْغُلَامُ فَقَالَ : ارْجِعْ عَن دِينِكَ ، قَالَ : فَأَبَى
الْغُلَامُ ؛ قَالَ : فَأَخَذَهُ بِالْعَذَابِ ؛ قَالَ : فَدَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ ، فَأَخَذَ الرَّاهِبَ فَقَالَ : ارْجِعْ عَن دِينِكَ ، فَأَبَى ؛
قَالَ : فَوَضَعَ الْمُنْشَارَ عَلَى هَامَتِهِ فَشَقَّهُ حَتَّى بَلَغَ الْأَرْضَ ، قَالَ : وَأَخَذَ الْأَعْمَى فَقَالَ : لَتَرْجِعَنَّ أَوْ لَأُقْتُلَنَّكَ ؛
قَالَ : فَأَبَى الْأَعْمَى ، فَوَضَعَ الْمُنْشَارَ عَلَى هَامَتِهِ فَشَقَّهُ حَتَّى بَلَغَ الْأَرْضَ ، ثُمَّ قَالَ لِلْغُلَامِ : لَتَرْجِعَنَّ أَوْ
لَأُقْتُلَنَّكَ ؛ قَالَ : فَأَبَى ، قَالَ : فَقال : اذْهَبُوا بِهِ حَتَّى تَبْلُغُوا بِهِ ذِرْوَةَ الْجَبَلِ ، فَإِنْ رَجَعَ عَن دِينِهِ وَإِلَّا
فَدَهْدِهِوهُ ، فَلَمَّا بَلَغُوا بِهِ ذِرْوَةَ الْجَبَلِ فَوَقَعُوا فَمَاتُوا كُلُّهُمْ . وَجَاءَ الْغُلَامُ يَتَلَمَّسُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى الْمَلِكِ ،
فَقَالَ : أَيَنْ أَصْحَابِكَ ؟ قَالَ : كَفَانِيهِمُ اللَّهُ ، قَالَ : فَادْهَبُوا بِهِ فَحَمِلُوهُ فِي قَرْقُورٍ فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ فَإِنْ رَجَعَ

عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَعَرِّقُوهُ، قَالَ: فَذَهَبُوا بِهِ، فَلَمَّا تَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ قَالَ الْغُلَامُ: اللَّهُمَّ اكْفَيْهِمْ، فَأَنْكَفَتَ بِهِمُ السَّفِينَةُ، وَجَاءَ الْغُلَامُ يَتَلَمَّسُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ الْمَلِكُ: أَيْنَ أَصْحَابُكَ؟ فَقَالَ: دَعَوْتُ اللَّهَ فَكَفَّنِيهِمْ. قَالَ لِأَقْتُلَنَّكَ، قَالَ: مَا أَنْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَصْنَعَ مَا أَمْرُكَ. قَالَ: فَقَالَ الْغُلَامُ لِلْمَلِكِ: إِجْمَعِ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ثُمَّ اصْلُبْنِي، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي فَأَرْمِنِي وَقُلْ: بِاسْمِ رَبِّ الْغُلَامِ، فَإِنَّكَ سَتَقْتُلُنِي؛ قَالَ: فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، قَالَ: وَصَلْبُهُ وَأَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ فَوَضَعَهُ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ رَمَى فَقَالَ: بِاسْمِ رَبِّ الْغُلَامِ، فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صَدْعِ الْغُلَامِ، فَوَضَعَ يَدَهُ هَكَذَا عَلَى صَدْعِهِ وَمَاتَ الْغُلَامُ. فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ. فَقَالُوا لِلْمَلِكِ: مَا صَنَعْتَ؟ الَّذِي كُنْتَ تَحْذَرُ قَدْ وَقَعَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ! فَأَمَرَ بِأَفْوَاهِ السِّكِّكِ فَأُخِذَتْ، وَخَدَّ الْأَخْذُودِ وَضَرَمَ فِيهِ النَّيْرَانَ، وَأَخَذَهُمْ، وَقَالَ: إِنْ رَجَعُوا وَإِلَّا فَأَلْقُوهُمْ فِي النَّارِ. قَالَ: فَكَانُوا يُلْقُونَهُمْ فِي النَّارِ. قَالَ: فَجَاءَتْ امْرَأَةٌ مَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا، قَالَ: فَلَمَّا ذَهَبَتْ تَفْتَحُجُّ وَجَدَتْ حَرَّ النَّارِ فَانْكَصَتْ، قَالَ: فَقَالَ لَهَا صَبِيُّهَا: يَا أُمَّهُ، امْضِي فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ، فَاقْتَحَمَتْ فِي النَّارِ».

واختُلفَ في موضعِ جوابِ القسمِ بقوله: «والسماءِ ذاتِ البروجِ» فقال بعضهم: جوابه: «إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ».

وقال بعضُ نحويي الكوفة: يقالُ في التفسيرِ: إِنَّ جوابَ القسمِ في قوله: «قُتِلَ» كما كانَ قَسْمُ «والشمسِ وضحاها» في قوله «قَدْ أَفْلَحَ» هذا في التفسيرِ قالوا: ولم نجد العربَ تدعُ القسمَ بغيرِ لامٍ يستقبلُ بها أو «لا» أو «إن» أو «ما»، فإنَّ يكنُ ذلكَ كذلك، فكأنه مما تُركَ فيه الجوابُ، ثم استؤنِفَ موضعَ الجوابِ بالخبرِ، كما قيل: يا أيها الإنسانُ، في كثيرٍ من الكلامِ.

وأولى الأقوالِ في ذلكَ عندي بالصوابِ: قولُ مَنْ قالَ: جوابُ القسمِ في ذلكَ متروكٌ، والخبرُ مُسْتَأْنَفٌ لأنَّ علامةَ جوابِ القسمِ لا تحذفُ العربُ من الكلامِ إذا أجابته.

وقوله: «النَّارِ ذاتِ الوَقُودِ» فقوله «النَّارِ»: رُدُّ على الأُخْدُودِ، ولذلك خُفِّضَتْ، وإنما جازَ رُدُّها عليه وهي غيره، لأنها كانت فيه، فكأنها إذ كانت فيه هو، فَجَرَى الكلامُ عليه لمعرفةِ المخاطِبِينَ به بمعناه وكأنه قيل: قُتِلَ أصحابُ النارِ ذاتِ الوَقُودِ. ويعني بقوله «ذاتِ الوَقُودِ» ذاتِ الحطبِ الجزلِ، وذلك إذا فُتِحَتْ الواو، وأما الوَقُودُ بضمِّ الواو، فهو الاتِّقَادُ.

القولُ في تأويلِ قوله تعالى :

إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦٧﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٦٨﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ
إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦٩﴾

يقولُ تعالى ذِكْرُهُ : النارِ ذاتِ الوقودِ ، إذ هؤلاءِ الكفارِ من أصحابِ الأخدودِ عليها ، يعني : على النارِ ،
فقال عليها ، والمعنى أنهم قعودٌ على حافةِ الأخدودِ ، فقيل : على النارِ ، والمعنى : لشفيرِ الأخدودِ ، لمعرفةِ
السامعينَ معناه .

وقوله : « وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ » يعني : حضورٌ .

وقوله : « وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ » : يقولُ تعالى ذِكْرُهُ : وما وجدَ هؤلاءِ
الكفارُ الذين قتلوا المؤمنينَ على المؤمنينَ والمؤمناتِ بالنارِ في شيءٍ ، ولا فعلوا بهم ما فعلوا بسببِ إلا من
أجلِ أنهم آمنوا بالله ، وقال : « إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ » لأنَّ المعنى إلا إيمانهم بالله ، فلذلك حَسُنَ في موضعيهِ
« يؤمنوا » ، إذ كان الإيمانُ لهم صفةً . « العزيزِ » يقول : الشديد في انتقامهِ ممن انتقمَ منه ، « الحميدِ » يقول :
المحمود بإحسانِهِ إلى خَلْقِهِ .

القولُ في تأويلِ قوله تعالى :

الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٧٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا
الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿٧١﴾

يقولُ تعالى ذِكْرُهُ : الذي له سلطانُ السمواتِ السبعِ والأرضينَ وما فيهنَّ « واللهُ على كلِّ شيءٍ شهيدٌ »
يقولُ تعالى ذكروه : والله على فعلِ هؤلاءِ الكفارِ من أصحابِ الأخدودِ بالمؤمنينَ الذين فَتَنُوهم شاهدٌ ، وعلى
غيرِ ذلك من أفعالِهِم وأفعالِ جميعِ خلقِهِ ، وهو مُجازيهِم جزاءَهُم .

وقوله : « إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ » يقولُ : إنَّ الذين ابتلوا المؤمنينَ والمؤمناتِ باللهِ
بتعذيبِهِم ، وإحراقِهِم بالنارِ .

وقوله : « ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا » يقول : ثم لم يتوبوا من كفرِهِم وفعلِهِم ، الذي فعلوا بالمؤمنينَ والمؤمناتِ من
أجلِ إيمانِهِم باللهِ « فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ » في الآخرةِ « وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ » في الدنيا .

القول في تأويل قوله تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ
الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾

يقول تعالى ذكره : إِنَّ الَّذِينَ أَقْرَأُوا بِتَوْحِيدِ اللَّهِ ، وهم هؤلاء القوم ، الذين حرَّقَهم أصحاب الأُخدودِ ، وغيرهم من سائر أهل التوحيد « وعملوا الصالحات » يقول : وعملوا بطاعة الله ، واثتمروا لأمره ، وانتهوا عما نهاهم عنه « لهم جنات تجري من تحتها الأنهار » يقول : لهم في الآخرة عند الله بساتين تجري من تحتها الأنهار والخمرث واللبن والعسل « ذلك الفوز الكبير » يقول : هذا الذي هو لهؤلاء المؤمنين في الآخرة ، وهو الظفر الكبير بما طلبوا والتمسوا بإيمانهم بالله في الدنيا ، وعملهم بما أمرهم الله به فيها ورضيَّه منهم .

وقوله : « إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ » يقول تعالى ذكره لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ يَا مُحَمَّدٌ لَمَنْ بَطَشَ بِهِ مِنْ خَلْقِهِ ، وهو انتقامه ممن انتقم منه لشديده ، وهو تحذير من اللهش لقوم رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، أن يُجِلَّ بهم من عذابه ونقمته ، نظير الذي حلَّ بأصحاب الأُخدودِ على كفرهم به ، وتكذيبهم رسوله ، وفتنتهم المؤمنين والمؤمنات منهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْعَفْوَورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَالٌ
لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾

اختلف أهل التأويل في معنى قوله « إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ » فقال بعضهم : معنى ذلك : إِنَّ اللَّهَ أْبْدَى خَلْقَهُ ، فهو يبتدئ ، بمعنى : يُحْدِثُ خَلْقَهُ ابْتِدَاءً ، ثم يميتهم ، ثم يعيدهم أحياء بعد مماتهم ، كَهَيئَتِهِمْ قَبْلَ مَمَاتِهِمْ .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : إنه هو يُبْدِي العذابَ وَيُعِيدُهُ .

وأولى التأويلين في ذلك عندي بالصواب ، وأشبههُمَا بظاهر ما دلَّ عليه التَّنْزِيلُ : وهو أنه يُبْدِي العذابَ لِأَهْلِ الْكُفْرِ وَيُعِيدُهُ ، كما قال جل ثناؤه : « فَ لَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ » في الدنيا ، فأبدأ ذلك لهم في الدنيا ، وهو يُعِيدُهُ لهم في الآخرة .

وقوله: « وهو العَفُورُ الْوَدُودُ » يقول تعالى ذِكْرُهُ: وهو ذو المغفرة لمن تابَ إليه من ذنوبه ، وذو الحَبَّةِ له .

وقوله: « ذو العَرْشِ الْمَجِيدُ » يقول تعالى ذكره : ذو العرشِ الكريمِ .
واختلفَ القُرَّاءُ في قراءةِ قوله « المجيدُ » فقرأته عامةُ قُرَّاءِ المدينةِ مَكَّةَ والبصرةَ وبعضُ الكوفيينَ رفعاً ، رداً على قوله « ذُو العرشِ » على أنه من صفةِ الله تعالى ذكره . وقرأ عامةُ قراءِ الكوفةِ خفضاً ، على أنه من صفةِ العرشِ .

والصوابُ مِنَ القولِ في ذلك عندنا : أنَّهما قراءتانِ معروفتانِ ، فبأيهما قرأَ القارئُ فمصيبٌ .
وقوله: « فَعَلَّ لِمَا يُرِيدُ » يقولُ : هو غَفَّارٌ لذنوبِ مَنْ شاءَ مِنْ عبادهِ إذا تابَ وأتابَ منها ، معاقبٌ مَنْ أصرَّ عليها وأقامَ ، لا يمنعهُ مانعٌ مِنْ فعلِ أرَادَ أَنْ يفعلَه ، ولا يحولُ بينه وبين ذلك حائلٌ ، لأنَّ له ملكَ السمواتِ والأرضِ وهو العزيزُ الحكيمُ .

وقوله: « هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ » يقول تعالى ذكره لنبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هل جاءَكَ يا مُحَمَّدٌ حديثُ الجنودِ ، الذينَ تَجَنَّدُوا على الله ورسوله بأذاهم ومكروههم ؛ يقول : قد أتَاكَ ذلكَ وَعَلِمْتَهُ ، فاصبرْ لِأذى قومِكَ إِيَّاكَ ، لما نالوكَ به من مكروهٍ ، كما صبرَ الذينَ تَجَنَّدَ هؤلاءِ الجنودُ عليهم مِنْ رُسُلِي ، ولا يُشْنِكَ عن تبليغِهِم رسالتي ، كما لم يثْنِ الذينَ أرسلوا إلى هؤلاءِ ، فإنَّ عاقبةَ مَنْ لم يصدِّقْكَ ويؤمنُ بِكَ منهم إلى عطبٍ وهلاكٍ ، كالذي كانَ مِنْ هؤلاءِ الجنودِ ، ثم بَيَّنَّ جَلَّ ثَنَاؤُهُ عن الجنودِ مَنْ هم ، فقال : « فرعونَ وَثمودَ » يقول : فرعونَ ، فاجتزى بذكره ، إذ كانَ رئيسَ جندهِ ، من ذِكْرِ جندهِ وَتُبَاعِهِ . وإنما معنى الكلامِ : هل أتَاكَ حديثُ الجنودِ ، فرعونَ وقومه وَثمودَ ، وخفضَ فرعونَ رداً على الجنودِ ، على الترجمةِ عنهم ، وإنما فُتِحَ لِأَنَّهُ لا يجري ٤ وَثمودَ .

القولُ في تأويلِ قوله تعالى :

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١١﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿١٢﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿١٣﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿١٤﴾

٤ أي ممنوع من الصرف .

يقولُ تعالى ذِكْرُهُ: ما بهولاءِ القومِ الذينَ يكذِّبونَ بوعيدِ اللهِ ، أنهم لم يأتهمُ أنباءٌ من قبلهم من الأممِ المكذِّبَةِ رسلَ اللهِ ، كفرعونَ وقومه ، وثمودَ وأشكالهم ، وما أحلَّ اللهُ بهم من النقمِ ، بتكذيبهم الرسلَ ، ولكنهم في تكذيبِ بوحىِ اللهِ وتنزيله ، إثارةً منهم لأهوائهم ، واتباعاً منهم لسننِ آبائهم « واللهُ مِن ورائهم مُحيطٌ » بأعمالهم ، مُحصٍ لها ، لا يخفى عليه منها شيءٌ ، وهو مُجازيهم على جميعها .
 وقوله : « بل هو قرآنٌ مجيدٌ » يقولُ : تكذيباً منه جلُّ ثناؤه للقائلين للقرآنِ هو شعرٌ وسجعٌ : ما ذلك كذلك ، بل هو قرآنٌ كريمٌ .

وقوله : « في لَوْحٍ مَحْفُوظٍ » يقولُ تعالى ذكره : هو قرآنٌ كريمٌ ، مثبتٌ في لوحٍ محفوظٍ .
 واختلفَ القراءُ في قراءةِ قوله « مَحْفُوظٍ » فقرأ ذلك من قرأه من أهلِ الحجازِ ، أبو جعفر الفارسي وابنُ كثير ، ومن قرأه من قرأه الكوفةِ عاصم والأعمش وحمزة والكسائي ، ومن البصريين أبو عمرو « محفوظٌ » خفضاً على معنى أنَّ اللوحَ هو المنعوتُ باللفظِ . وإذا كان كذلك كان التأويلُ : في لوحٍ محفوظٍ من الزيادةِ فيه ، والنقصانِ منه ، عما أثبتَه اللهُ فيه . وقرأ ذلك من المكِّيِّين ابنُ مُحَيِّصين ، ومن المدنيِّين نافع « محفوظٌ » رفعاً ، رداً على القرآنِ ، على أنَّه من نعتِه وصفته . وكان معنى ذلك على قراءتهما : بل هو قرآنٌ مجيدٌ ، محفوظٌ من التغييرِ والتبديلِ في لوحٍ .

آخر تفسير سورة البروج